



تنافس حلب والموصل هذه الأيام على إيلامنا وجلد وجاذتنا، وعلى تكريينا لتقصيرنا وإهمالنا. قبلهما اغتيلت حمص وهانت علينا، اغتيلت بيروت، واستبيحت القدس والخليل وغزة، وغيرها وغيرها، وهانت علينا كلها. أصبحت المقارنة، وربما المفاضلة، بين احتلال يشير إليه العالم على أنه احتلال لا تستطيع إسرائيل أن تخالص من آثامه مهما عربدت في إجرامها، واحتلال لا أحد سوى المعانين منه يسميه باسمه رغم أن إيران فجرت وتمادت، واحتلال روسي لا يشبهه سوى احتلال أمريكي وقد برع كلاهما في الاستهتار بالأرض ومن عليها وما عليها، وبال التاريخ والحاضر والمستقبل وما تعنيه لا للسوريين وال العراقيين أو العرب، ولا لسنة وشيعة و مسيحيين، وحدهم، بل للعالم ولما تسمى «حضارة انسانية» فشل العرب، قبل سواهم، في الاهتداء إلى سبل حمايتها من صولات الوحش الممسورة.

هناك طعم نهایات مريدة وبدایات أكثر مرارة في ما تشهده حلب والموصل. لا، ليس التراث الإنساني الذي هشّمه المدعو «أبو بكر البغدادي» أو يدمّره المدعو فلاديمير بوتين أو يطرحه سماحة الحرب في مزادات التهريب هو ما سيفتقد فقط، بل انه الإنسان نفسه الذي صبر على الطغاة القدامى والجدد، بمن فيهم صدام حسين وجورج بوش ونوري المالكي وبشار الأسد وقادس سليماني و «داعش»، وصنع تجربة العيش بهذا المزيج من الأقوام والأديان.

هذا الإنسان تحطم بدوره وتدمّر، فقد الثقة والأمل، فلا الدولة/النظام تحميه ولا هو يعني شيئاً لها، ولا القوى الخارجية ترحمه بل تمعن في تقطيع أوصاله.

وفي السياق الحضاري التاريخي سيكون واضحاً أن روسيا دمرت حلب وأميركا دمرت الموصل وإيران صنعت «داعش» لاستدراجهما كي يلعبا لعبتها القذرة فتحصد المكاسب. وعلى رغم أن الوحشية لا تُعرف إلا باسمها ولا مجال فيها للمقارنات إلا أن «داعش» المنشغل بالنحر والحرق والنهب والسب قد يبقى في الموصل مستشفيات ومدارس ومخابز وأسواقاً، خلافاً لما ارتكبه بوتين لتوه في حلب وهو منشغل بتدمير سوريا لتأمين قضمها أوكرانيا أو لتقاسمها بصفقة مع أميركا.

«مرات آمنة» غير آمنة هي كل ما تبقى من المدينتين لأهلها. حُوصلت الموصل ويراد لأهلها أن يغادروا كي يسهل تحريرهم من تنظيم «داعش»، وبعضٌ من يحاصرونها أو جلٌ من يريدون «تحريرها» ساهم في صنع «داعش» وتسعير توحّشه.

هناك أكثر من معركة في الموصل، واحدة لأهل الموصل وخمسة لأميركا وإيران وتركيا وحكومة بغداد والأكراد، وكلٌ منهم

صحيح أن الهدف طرد «داعش» لكنه يختلف بالنسبة الى الإيرانيين والأتراك بين تمكين و/أو عدم تمكين «داعش الحشد الشعبي/ الشيعي» من دخول المدينة.

لا شك في أن «داعش» سيهزم، لكن هذه معركة يراقبها العالم موقناً بأن النصر فيها يعادل الهزيمة اذا أفسدتها صبية قاسم سليماني و «حشده». شيء من هذا يشوب أيضاً معركة حلب، حيث لا وجود لـ «داعش» بل إن «فتح الشام/ النصرة/ القاعدة» يحاول الذوبان في نسيج الفصائل، فيما ينتظر «داعش» الأسد و سليماني والحشد العراقي و «حزب الله» اللبناني وأقرانهم متعددو الجنسية أن لا يبقي الروس حجرأ على حجر فيها ليعلنوا الانتصار على ركام المدينة. يذكر أن الروس والإيرانيين يتغطون بـ «شرعية» نظام مجرم تعاقده معهم على قتل الشعب السوري وتدمير حواضره، لكن حكومة بغداد لم تعلن أن الأسد تعاقده معها لاستيراد «داعش الحشد» الذين جعلهم حيدر العبادي جزءاً من الجيش العراقي.

لا خلاف على إرهابية «داعش»، لكن كم الإجرام الذي مورس في سوريا والعراق وعدد المشاركين فيه يبرز إرهابية الآخرين ويحملهم مسؤولية مضايقة في ترك ظاهرة «داعش» تكبر وفي استغلالهم لها، بل في استنساخ «منطقة»ها السياسي الذي ربط بين البلدين، حتى قيل إن هذا التنظيم هو الذي جهر بإعادة النظر في ترتيبات معاهدات «سايكس - بيكو» و «سيفر - لوزان»، فيما تطرح الأطراف الأخرى إعادة النظر هذه سرّاً. وعلى رغم مساعدة الجيش العراقي وقوات البيشمركة الكردية بالجهد الأكبر في تحرير الموصل، إلا أن سنة نينوى لجأوا الى تركيا وإلى تذكيرها بصلتها التاريخية بالموصل طلباً للحماية منذ الآن تحسباً لمرحلة «ما بعد داعش»، وثمة مؤشرات الى أن المحافظات السنية الأخرى تشارکهم هذا الالتماس، فهي تعاني من تداعيات الغزو الإيراني المتنكر بـ «داعش الحشد الشعبي» بعد تحريرها من «داعش». وتستند مخاوف الموصل وبالاخص تلغرر الى أن هذه الأخيرة بمقدار ما تشكل معبراً لـ «الداعش» الهاربين الى الشطر الآخر من «دولة الخلافة» بمقدار ما يحتاج اليها الإيرانيون كممراً لا بد منه للاتصال جغرافياً بسوريا، كما أنهم يحتاجون الى حلب لتأمين تواصل سوريا - العراق - إيران.

يدور السيناريو حالياً كما يفترض له بدءاً من 1916، كما لو أن المئة عام لم تكن أو كأنها محكومة بأن تعود الى الفراغ الذي بدأت به، لا دول لا مؤسسات لا فكر لا نخب. هناك أمة قذفها الفرس الهائج من على متنه فارتمت أرضاً ليكثر ذيابوها. قبل مئة عام توافقت مصالح «الحلفاء» المنتصرين في الحرب العالمية الأولى على تقسيم الترکة العثمانية بإرضاء العرب القومية، وبعدها التقت مصالح الأطلسيين والسوفيات على مباركة سرقة الاسرائيليين أرض فلسطين التاريخية، بل التقت أيضاً على منع العرب من أن يتصرفوا كقومية يلتقي أبناؤها على أهداف مشتركة، وقد سهل العرب للقوى الخارجية الاستهانة بمصالحهم وطموحاتهم.

رغم كل ما بذله العرب (بالاخرى ما بذلته الأنظمة) من أخطاء لمصالحهم في ما ظنوه مصالحات وتحالفات مع العالم، فإنهم اتهموا أولاً بقوميتهم ويتهمنون اليوم بإسلامهم، كمصدر خطر إقليمي وعالمي، ولم يعد يُرى منهم سوى «إرهابهم»، بل إنهم يُحاسبون ويعاقبون على هذه كلها. وهذا هم يقفون اليوم على قارعة التاريخ فلا يجدون صديقاً أو حليفاً، وتکاد العودة الى كنف الدولة العثمانية تشكل ذروة طموحاتهم، ولن ينالوها. أما الكبار، وهم الأميركيون والروس هذه المرّة، فيستخلصون من تجربة الـ 100 عام ضرورة «شرعنة» تطلعات القوميتين اليهودية والكردية بما تتطلبه من تقسيم وتغيير خرائط، ويتوافقون على تنصيب الفرس والاسرائيليين أوصياء على العرب، كمكافأة على ما ارتكبوا في حق العرب. وربما يراد بشيء من التردد، إشراك الأتراك لكن كأوصياء من الدرجة الثانية.

بعد كل المقدّمات التي تفاعلت سورياً وعرقياً وأقليمياً ودولياً تؤشر الى نهاية مرحلة، ولم يعد حديث التقسيم مجرد تكهنات واحتمالات، بل توغل أكثر في التداول. ليس هناك أبسط من القول، مثلاً، أن تعايش السنة مع بغداد بات استحالة من دون أن يقال لماذا وكيف صار كذلك ومن المسؤول، بل من دون النظر الى الفارق بين تعايشهم الممكن مع الشيعة وبين إجبارهم على الخروج من عراقيتهم والخضوع للاحتلال الإيراني. ولو أن أتباعولي الفقيه بنوا تجربة راقية تحترم خصوصيات العراق لما كان «داعش» ظهر أصلاً، لكن الحاصل هو أنهم منعوا قيام دولة وهمشوا الجيش وأرعبوه بـ «دواعش الحشد» وهتكوا كل ما تبقى من روابط أهلية غير متأثرة بالشحن الطائفي وساهموا في مؤسسة الفساد. فهل أن هذه مقومات «تفاهم» أميركا وإيران على العراق؟ واقعياً، لم يثبت أنها عكس ذلك ولم يتبرأ الأميركيون مما حصل بعد انسحابهم.

لكن هل هناك أي مبرر، طائفي أو سياسي، يبرر مذهداً هذا «التفاهم» الى سوريا والاعتراف بالدور الإيراني كجزء من «التفاهمات» الأميركية - الروسية ومن دون أي اعتبار لخصوصيات سوريا إن لم يكن لحقائق مجتمعها؟ لا مجال لإخراج السوريين من سوريا وإخضاعهم لاحتلال إيراني جنباً الى جنب مع احتلال روسي، لذلك صمتت أميركا عن اقتلاعهم من مدنهم وبيوتهم، وهي روسيا تغضّان النظر عن تغيير ديموغرافي تعمل إيران على هندسته لإدامه احتلالها. فإذا لم يكن هذا من ارهاسات التقسيم، كما تتمناه واشنطن وموسكو، فما عساه يكون؟

الحياة اللندنية

المصادر: